التلميذ الناشئ والشيخ الحكيم

الأخ ع . ذو فقار

السادات .. وعلماء مصر

قال التلميذُ الناشئُ لشيخهِ الحكيم :

– ألم يقل الله عزَّ وجلَّ في كتابه الحكيم :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُــونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة : 174]

قال الشيخُ الحكيم :

– بلى

قال التلميذُ الناشئ :

– ألم يُروَ عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنّه قال : «**مَنْ كَتَمَ عِلْماً أَلْجَمَهُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**» حديث حسن رواه ابن حبان في صحيحه .

قال الشيخُ الحكيم :

– بلى

قال التلميذُ الناشئ :

– فكيف كتمَ أكثرُ علماءِ مصر[1] ودعاتِها الذين جمعهم الساداتُ ما أنزل الله من الكتاب ، وما استودعهم من العلم في معرِض الحاجة إلى البيانِ ، والساداتُ يُحَرِّفُ الإسلام ، ويشتُم المسلمين ، دون تهيّب ولا حياء ؟!

قال الشيخُ الحكيم :

– لقد كان في قلوبهم خَشْيَةُ المخلوقِ ، و لم تكنْ في قلوبهم خشيةُ الخالقِ ، فسكتوا عن الباطل ، وعجزوا عن إعلان كلمة الحقّ . . ولو كان في قلوبهم خشيةُ الخالق لا المخلوق ، لَكَان لهم موقفٌ آخرُ يَــشْمَخُ فيــه الحــقّ ، ويَخنسُ فيه الباطل ، وتهتزُّ له أعطافُ العالم الإسلاميّ ، ويُرَدِّدُ صداهُ التاريخ إلى مدىً بعيد

قال التلميذُ الناشئ :

– فأينَ هؤلاءِ العلماءُ والدعاةُ إذن من قول اللهِ عزَّ وجلّ :

﴿ ... **أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟! فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾ [التوبة : 13]

ومِنْ قول الله عزَّ وجلَّ :

﴿ **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا** ﴾ [الأحزاب : 39]

قال الشيخُ الحكيم :

– لقد قرؤوا ذلك يا بُنَيَّ وأَقْرَؤوه مئاتِ المرّات . . ولكن المهمّ أن يَنْفُذَ هذا القولُ إلى عقولهم وقلوبهم ، وأن يتجسّمَ في حياتهم ومواقفهم . . ولو حصل هذا لَوُجِدَ فيهم من يواجهُ السادات مواجهةَ العزِّ بن عبدِ السَّلامِ للسلطان أيُّوب ، ومن يستطيعُ أن يقولَ بعدَ المواجهةِ أيضاً ما قاله العزُّ بنُ عبدِ السلام عندما سأله بعض تلاميذه : أما خفتَ السلطان ؟! فأجاب رحمه الله تعالى جوابَه الخالد :

«استحضرتُ في قلبي خشيةَ اللهِ فصارَ السلطانُ في عيني كالقطّ»

طريقُ الحياةِ الحقيقيَّة الكريمة

قال التلميذُ الناشئُ لشيخهِ الحكيم :

– لقد طال نومُنا على الهوان ، وخضوعُنا المستمرُّ للطغيانِ بعدَ الطغيان .. حتى لقد أشبهَ ذلكَ الموت

قال الشيخُ الحكيم :

– بل هو الموتُ نفسُه في أحدِ أشكالِه الرهيبةِ العجيبةِ التي يُصاب بها الأحياءُ في بعضِ الأحيانِ وهم ما يزالونَ يتنفَّسونَ ويتكلّمون ويَدِبّون على وجهِ الأرض . . ألمْ تقرأْ هذه الأبيات التي صَوَّرَ بها أحدُ شعرائِنا المعاصرينَ حالَنا هذه أبرعَ تصوير :

نحنُ مَوْتَى! وَشَـــرُّ ما ابْتَدَع الطُّغْيَانُ مَوْتــى علــى الدُّرُوبِ تَســـــيرُ
نحنُ مَوتَى! وإنْ غَدوْنَــا ورُحْنَـــا والبُيُــوتُ الْمُزَوَّقَـــاتُ قُبُـــورُ
نحنُ مَوْتَى يُسِـــرُّ جـــارٌ لِجـــارٍ مُسْـــتَريباً : مَتَى يَكُونُ النُّشُـــورُ

قال التلميذُ الناشئُ مردِّداً تساؤلَ الشاعِرِ في الشَطْرِ الأخير :
– نعم ، متى يكونُ النشورُ من هذا الهوانِ والخضوع ، وهذا الضَّرْبِ الرهيبِ العجيب من ضروبِ الموت ؟

قال الشيخُ الحكيم :
– يكونُ النشورُ من الهوانِ والخضوع ، وتعودُ إلينا الحياةُ بمعناها الحقيقيّ وقيمتها الحقيقيّة ، عندما نستجيبُ مخلصين صادقين لله وللرسول ، ونرجع رجعةً كاملة فاصلة إلى الإسلام كما أنزله الله عزَّ وجلَّ ، فالله عزَّ وجلَّ قال :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ۞ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۞ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآَوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الأنفال :24-26]

إنّنا يا بنيَّ –وهذا من أكبر عِلَلِنَا– نعرفُ طريقَ الحياةِ ولا نَسْلُكُه ، ونبصرُ طَوْقَ النجاةِ ولا نُمْسِكُه

كالعِيسِ في البَيْداءِ يَقْتُلُهـــا الظَّمَـــا والماءُ فَوْقَ ظُهُورِهـــا مَحْمُـــولُ

حلمٌ وغفران

قال رجلٌ في مجلسِ الشيخِ الحكيم :
– ما أطيبَ شعوبَنا وما أحلَمَها ، وما أكثرَ غُفرانَها لحكّامِها الظالمين ، وأعدائِها الغاشمين ..

قال الشيخُ الحكيم :

– إنّ الحِلْمَ والغفرانَ لا يكونانِ إلاّ عن قُدْرَةٍ وانتصار ، وما أبعدَ الفرقَ بين الحلمِ والعجز ، والغفرانِ والذلّ .. وإنّه لَيُعْجِبُني في ذلك قولُ أبي الطيّب المتنبّي :

كلُّ حِلْمٍ أتى بِغَيْرِ اقْتِـــدَارٍ حُجَّةٌ لاجِئٌ إليها اللِّئامُ

وقولُه :

يَرى الْجُبَناءُ أنَّ العَجْزَ عَقْـــلٌ وتلكَ خَدِيعَةُ الطَّبْعِ اللّئيمِ

كما يُعجبني أيضاً قولُ بَدَوِيٍّ الجبَلَ في أحدِ الشعوب :

يُغْضِي على الذُّلِّ غُفْرانـــاً لِظالِمِـــهِ تَأَنَّقَ الذُّلُّ حتّى صارَ غُفْرانَا

لا بدَّ –يا أخي– أن تتحرّرَ شعوبُنا من الظلمِ والطغيان ، لِتُدْرِكَ فضيلةَ الحلمِ والغفـــران ، ففـــضيلةُ الحلـــمِ والغفرانِ لا يدركُها عاجزٌ ولا جَبان

عتبُ الأصدقاء وغضبُ الأعداء

قال التلميذُ الناشئُ لشيخهِ الحكيم :

– ما أشدَّ جزعَك لِعَتْبِ الأصدقاء! واستخفافَكَ بغضبِ الأعداء –مهما اشتدَّ بأسُ الأعداء–!

قال الشيخُ الحكيم :

– إنّني في ذلك كأبي الطيّبِ المتنبّي الذي يقول :

ويَزيدُني غَضَبُ الأعـــادي قَـــسْوَةً ويُلِمُّ بي عَتْبُ الصديقِ فَأَجْزَعُ

قال التلميذُ الناشئ :
– وإذا كان عدوُّك على حقّ ؟

قال الشيخُ الحكيم :
– إذا كان على حقٍّ فلن يكونَ لي عندَ ذلك عَدُوّاً

كَراهِيَةُ الْمُنْحَرِفين للمستقيمين

قال التلميذُ الناشئُ لشيخهِ الحكيم :
– إذا التمَسْنا لهؤلاءِ الأعذارَ في إيثارِهِمُ العاجلةَ على الآجلَة ، وميلِهم عن طريقِ الحقِّ إلى طريـــق الباطـــل ، وعن طريقِ الواجبِ إلى طريقِ المنفعة ، وعن طريقِ الحريّةِ والكرامةِ إلى طريقِ العبوديّةِ والهوان . . فما عـــذرُهم في محاربةِ الذينَ آثروا الآخرةَ على الدنيا ، واستقاموا على طريقِ الحقِّ والواجبِ والحريّةِ والكرامة ، فلم ينحرفوا رغمَ كلِّ الشدائد ، وكلِّ المغريات .

قال الشيخُ الحكيم :
– إنّ استقامةَ المستقيمِ هي التي تَكْشِفُ انحرافَ المنحرف ، وفضلَ الفاضلِ هو الذي يُظْهِرُ نقص النـــاقص . . وكراهيةُ المنحرفين وأشباهِهم للمستقيمين ، وحقدُهم عليهم ، وحربُهم لهم ، إنّما يكونُ بمقدارِ انحرافِهم ، ووعيِهم لهذا الانحراف ، وإصرارهِم عليه ، وعلى عدمِ الرجعةِ عنه ، والتوبةِ من إلى الله

ســـيِّد الجزيرة

قال التلميذُ الناشئُ لشيخهِ الحكيم :
– ما أعجبَ هذه العناوينَ الكبيرة ، والألقابَ العديدة التي تشيعُ في المسلمينَ من زمنٍ طويل ، والتي لا يوجَدُ لها أيُّ حقيقة ، أو لا يوجَدُ لها إلاّ حقيقةٌ صغيرة

قال الشيخُ الحكيم :

– إنّ هذه العناوينَ والألقابَ تذكّرني كثيراً بلَقَبِ «سيِّد الجزيرة» في مسرحيّةِ «مدرسة الزوجات» لمولْيير

قال التلميذُ الناشئ :

– وما سيّدُ الجزيرةِ هذا ؟ .. فأنا لم أقرأْ هذه المسرحيّة

قال الشيخُ الحكيم :

– لقد ذكر مولْيير على لسانِ أحدِ أبطالِ هذه المسرحيّةِ أنّه يعرفُ شخصاً اسمُه : «الْحَجَرُ الكـــبيرُ» يملِـــكُ قطعةً صغيرةً من الأرضِ ، فأحاطَ هذه القطعةَ بخندقٍ مليءٍ بالوحل ، واتّخذَ لنفسهِ على هذا الأساسِ هـــذا اللَّقَـــبَ الضخمَ الفخم : «سيِّدُ الجزيرة»

قال التلميذُ الناشئُ ضاحكا :

– فقد كانَ لهذا «السيّد» جزيرتُه على الأقلّ .. أما أصحابُ الألقابِ الكبيرةِ هذه الأيامِ فلـــيسَ لأكثـــرِهم جزيرةٌ ولو كانتْ قطعةً صغيرةً من الأرض ، وكانَ البحرُ الذي يُحيطُ بها خندقاً ضيّقاً من الوحل

---

(1) فقد كان لبعضهم في بعض الأمور موقف كريم .